المنار

١٣١٥

يشير عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب

هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا وما يتذكر الا أولو الالباب

حديث قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام سوى و « منارا » كمنار الطريق

(مصر ٣٠ شعبان ١٣٣٠ هـ ق ٢٢ الصيف الثاني ١٢٩١ هـ ش ١٣ اغسطس ٩١٢ م)

الخطبة الرئيسية (*)

(في ندوة العلماء بلكنهو « الهند »)

« لصاحب المنار »

أيها الاساتذة الكرام !

انكم تعلمون ان جميع القواعد الكلية للعلوم منتزعة من الجزئيات فالعلم بالجزئيات مقدم بالطبع فيجب أن يكون مقدماً بالوضع ، فاذا ذكرت الاجناس والفصول المقومة والمقسمة لأنواع من الحيوان والنبات والمعيت على من لم ير شيئاً من أفراد تلك الانواع أو رأى قليلا منها ثم دخل في بستان يوجد فيه أفراد من تلك الأنواع كلها أتحسب انه يستطيع أن يعرف كلا منها بهداية تلك التعريفات والقواعد الكلية؟؟

(*) تأخر لما نشر منها في الجزء الخامس ص ٣٣١ وكان سبب تأخر هذه البقية ان تأخر حضور بقية أصول الخطبة من الهند

لا ! لا ! أما من يعرف أفراد تلك الانواع فانه لا يحتاج الا لتنبيه قليل لمعرفة ما بينها من الفصل والاختلاف واذا ذكرت تلك الكليات يتناولها فهمه بسهولة وسرعة

ومفردات اللغة وأساليبها كمفردات أنواع الكائنات يشترك بعضها في الفاعلية أو المفعولية وفي الحقيقة أو المجاز وفي غير ذلك من أنواع الاتفاق فالقاعدة الموضوعة لضبط الفاعل والمفعول والحقيقة والمجاز لا يفهمها بسهولة وسرعة من لا يعرف الكثير من مفرداتها بالاستعمال . ثم اذا هو فهمها لا يسهل عليه أن يطبق مفرداتها عليها . وأما من عرفها بالاستعمال فانه يفهمها بغاية السهولة ولا سيما اذا عرض عليه عند ذكرها كثير من الامثلة والشواهد عليها

التعليم على هذه الطريقة هو التعليم الموافق للفطرة — فطرة الله التي خلق الناس عليها ومخالفته مخالفة للفطرة ، فالناس يتعلمون اللغات بتلقي مفرداتها بالعمل وكذلك تعرف الموجودات والكائنات بمعرفة أفرادها ، والذين وضعوا قواعد العلوم هم جماعة من أصحاب العقول الكبيرة عرفوا تلك الاشياء حق المعرفة ثم بالتأمل فيها انتزعوا منها تلك القواعد ، فاذا كلفنا التلاميذ الصغار أن يعرفوا تلك القواعد الكلية قبل أن نعرض عليهم تلك الجزئيات نكون كأننا نكلفهم أن يكونوا رجالا علماء حكماء قبل أن يشبوا وان يتعلموا وبذلك نكون قد أرهقناهم من أمرهم عسراً

ان علماءنا المتقدمين لم يكونوا محتاجين الى تسهيل طريقة تعليم اللغة العربية كحاجتنا اليها الآن لانها كانت ملكة لهم ومع هذا كانت كتبهم ككتاب سيبويه أقرب الى التعليم الفطري من كتبنا لكثرة ما كان فيها من الشواهد والأمثلة الموضحة للقواعد الكلية

ومالي أضرب الامثلة لتعليم فنون اللغة والمنطق ولا أذكر ما هو أهم من ذلك وأعلى وهو تعلم القرآن ودراسة تفسيره وهو المقصد الاعلى والغاية الفضلى ؟ لعلي اذا أنشأت أبين كيف يجب علينا أن نتعلم تفسير القرآن تعلما يعيننا على الاهتداء به أكون قد استهدفت لنقد كثير من الناس الذين يظنون أن القرآن الحكيم لا يحتاج الى فهمه الا المجتهدون الذين يتصدون لاستنباط الاحكام الفقهية العملية في أحكام ظواهر العبادات والمعاملات القضائية التي يحتاج اليها الحكام في المحاكم والمفتون . أولئك الذين يظنون غير الحق وترتعد فرائصهم من ذكر القرآن ويرون أنهم ببعدهم عن فهمه وصد الناس عنه يخدمون دينهم ويحافظون عليه

ايها السادة الكرام !

ان الله تعالى انزل القرآن هدى للناس اجمعين وان الاهتداء ليس خاصا بالمجتهدين الذين يستنبطون الاحكام العملية الفقهية وان آيات الاحكام فيه هي أقل عدداً من سائر الآيات التي تهدي العقول والارواح ، وترقى بها الى اعلى معارج الفلاح ، وكان سلفنا في القرون الاولى يهتدون به ويحيون بحياته ولم يكونوا كلهم ولا اكثرهم مجتهدين بهذا المعنى المعروف في الاصول .

لولا هداية القرآن وسلطانه على ارواح اولئك الاخيار لما كانوا خير امة أخرجت للناس ولما انتشر الاسلام بفضل الاقتداء بهم فقد زكى القرآن انفسهم ورقى عقولهم حتى كانوا لا يدخلون بلادا الا ويجذبون أهلها الى الاسلام بمحض القدوة ، ذلك بأنهم ما كانوا يعرفون لغة اولئك الاقوام ولا كانوا يفتحون لهم المدارس ويعلمون أحداثهم دينهم ولغة دينهم ، فكيف انتشر الاسلام من اقصى الهند الى اقصى افريقية وأوربة في تلك المدة القصيرة ؟

يقول الجاهلون : ان الاسلام قد انتشر بقوة السيف ؟ ياسبحان الله ان هذا الدين بدئ برجل واحد وهو النبي صلى الله عليه وسلم وكان قومه يجالدونه بسيوفهم طول حياته ولم يظفر بهم الظفر التام الا قبيل وفاته اعني عام فتح مكة . ثم ان اولئك الشراذم من اتباعه الكرام انتشروا في شرقي ارض الحجاز وغربها فهل كان في استطاعتهم ان يكرهوا أهل المشرق والمغرب على الاسلام وهم يقبلون منهم الجزية التي كانت أقل ما يأخذه حاكم من محكوم ثم هم يعاملونهم بالعدل والمساواة في الحقوق القضائية ويتركون لهم حرية دينهم ويسمحون لهم ان يتحاكموا الى رؤساء ملتهم في كل خصام يقع بينهم ؟؟ كلا انهم لم يكرهوا أحدا على الاسلام بحد السيف وانما جذبوا قلوبهم وعقولهم اليهم لانهم رأوهم اعدل الناس وارحم الناس وافضلهم اخلاقا وآدابا فاقتدوا بهم واحبوا ان يكونوا مثلهم بل منهم فكانوا يدخلون في الاسلام افواجا ويقبلون على تعلم اللغة العربية لاجل ان يهتدوا بنور ذلك الكتاب العربي المبين ، الذي جعل اولئك الفقراء المستضعفين هم الائمة الوارثين ، ولهذا انتشرت اللغة العربية بانتشار الدين بسرعة غريبة قبل ان يكون لها مدارس منشأة ولا كتب مدونة

يمكن لمن يفهم اللغة العربية حق الفهم أن يهتدي بالقرآن ويعتبر بمواعظه وآدابه وان لم يقرأ شيئا من كتب الفقه فان تأثير القرآن في قلوب من يفهمونه عجيب حتى ان بعض أدباء النصارى عندنا بمصر يعجبون منه ويعترفون به وقد سمعت غير واحد

منهم يقول عند حضور بعض احتفالات المدارس وسماع القرآن المجيد فيها: ان لهذه القراءة تأثيرا عميقا في النفس . هذا وهم لا يؤمنون به فما بالكم بالمؤمنين المخلصين . اولئك الذين هم مرآة قوله تعالى « الله نزل احسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين قلوبهم وجلودهم الى ذكر الله » وقوله « انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وانفسهم في سبيل الله اولئك هم الصادقون » فهل يمكن لمن لا يفهم العربية فهما صحيحا أن يكون من هؤلاء المؤمنين الصادقين ؟ وقال عز وجل « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الامثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » فاعتبروا بقوله تعالى « وتلك الامثال » فانه تعالى هدانا بهذا المثل الى ان ربنا يأخذنا ان تكون قلوبنا أقسى من الحجارة وهكذا شأن من يخشع بالقرآن ولا يتأثر بمواعظه

اذا سمع من يفهم العربية فهما صحيحا مثل قوله تعالى في الآيات الكريمة التي افتتح بها هذا الاحتفال « يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وانه اليه تحشرون » فانه يمكنه أن يفهم منه أن النبي صلى الله عليه وسلم ما دعانا بهذا الكتاب الحكيم الا الى ما يحيا به حياة معنوية طيبة نكون بها أمة عزيزة كريمة ، وان ينتقل ذهنه من ذلك الى تدبر القرآن ليهتدي به الى السنن الاجتماعية والفضيلة التي بين الله تعالى فيها أسباب هذه الحياة وهي كثيرة في القرآن ، وليست مما يلحقه النسخ الذي تشترط معرفته في الاجتهاد ،

بيان هذه الحياة في كتاب الله تعالى أعلى مرتبة من بيان بعض أحكام المعاملات ، كأحكام الحيض والبيع والسلم والشركات ، قال تعالى « ينزل الروح من أمره على من يشاء من عباده » وما سمى الله الوحي روحا الا لانه ينفخ في المهتدين روح الحياة المعنوية التي يكونون فيها أئمة الخير في الدنيا وأصحاب السعادة في الآخرة . تلك الحياة التي ظهر أثرها في سلفنا فسادوا العالم كله كما اشرنا الى ذلك من قبل ، ونحن نفتقدها ونبحث عن أسبابها الآن

انني كنت أود لو ابقي خطابي وتذكيري هذا على الآيات التي افتتح بها الاحتفال والافاضة في الكلام على هذه الحياة ، ولكن اقترح علي مولانا الشيخ سليم أمس أن أقول شيئا في التعليم فلم يكن لي بد من الامتثال ، واني قد افتتحت خطابي بقوله تعالى « الحمد لله الذي احيانا بعد ما أماتنا واليه النشور » للاشارة الى هذه الحياة روحنا

منها الآن . تعلمون ان هذه الآية تتلى عند الاستيقاظ من النوم ، وقد اشرت بافتتاح الخطاب بها الى أن حظنا من هذه الحياة الآن هو أننا أنشأنا نستيقظ من ذلك النوم الطويل ـ والنوم ضرب من الموت « الله يتوفى الانفس حين موتها والتي لم تمت في منامها » ـ فلست اعني بهذا اننا عدنا أمة حية كما كنا ، والله تعالى يحمد على كل حال موت الامم يشبه النوم ، وحياتها تشبه اليقظة ، ولا أقول أن امتنا قد استيقظت كلها من ذلك النوم الطويل ، والسبات المستغرق ، الذي مرت عليها القرون وهي فيه لاتشعر بما تعمله الامم الحية المستيقظة من حولها ، ولا بما فعلته حوادث الايام في جسمها ، وانما استيقظ الآن بشدة قوارع تلك الحوادث طائفة من أفرادها ، وهم دعاة الاصلاح الذين ارتفع صوتهم في بلادها ،

أيها الاخوة الكرام !

إننا مرضى ودواؤنا في الكتاب الذي أنزله الله الينا ، قال الله عز وجل « وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين » وكيف يرجى الشفاء ، لمن جهل الدواء ، وانما يعرف هذا الدواء بمعرفة اللغة العربية ، ثم بتلاوته وتدبره ، بقصد الاستشفاء والاهتداء به ، فاذا كان بين مسلمي العرب وبينه حجاب وهو ترك التدبر بهذا القصد ، فان بين مسلمي العجم وبينه حجابين وهما جهل لغته ، وعدم تدبره ، وان ازالة كل من الحجابين ، من اسهل الاعمال على الفريقين ، وقد جربنا تذكير عوام العرب بمواعظ القرآن فنفعت الذكرى ، وكذلك تنفع غيرهم اذا رفع الحجاب ، وتوفرت الاسباب ، وأتيت البيوت من الابواب ، « وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين * فذكر ان نفعت الذكرى ، سيذكر من يخشى »

اني أعتقد ايها الاخوة بالدليل ، ان تعلم اللغة العربية فرض على جميع المسلمين ، فان ما فرضه الله تعالى عليهم من تدبره والتذكر والاعتبار به ، والاهتداء بهديه ، كل ذلك يتوقف على معرفة لغته ، وقد روي هذا القول عن بعض علماء السلف ومنهم الشافعي ، وهو ما جرى عليه العمل في الصدر الاول وهو ابلغ من القول ، ولولا هذا الاعتقاد لما انتشرت اللغة العربية بانتشار الاسلام في الشام والعراق وفارس من بلاد المشرق ، ومصر وافريقية الشمالية كلها والاندلس من جهة المغرب ، وهي البلاد التي فتحها الصحابة والتابعون رضي الله عنهم ، ثم امتدت الى غيرها من بلاد الاسلام كهذه البلاد وغيرها من قبل ان تنشأ الفارس لها ، ولولا فتنة العصبية الجنسية التي اثارها بعض زنادقة العجم في الاسلام لاجل هدمه وازالة سلطته لكانت

الامة الاسلامية كلها اليوم تنطق بلسان واحد ، وتدعى الى فلاحها فتستجيب بلسان واحد ،

من الآيات الكثيرة الدالة على وجوب تدبر القرآن والاهتداء به قوله تعالى « افلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا» وقوله « أفلا يتدبرون القرآن ام على قلوب أقفالها ، إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سوّل لهم وأملى لهم * أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الاولين ، أم لم يعرفوا رسولهم فهم لهم منكرون » وقوله تعالى « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر » اي سهلناه ، لاجل ان يتذكر ويتعظ به من يتذكر فهل من متذكر ؟ وهو استفهام بمعنى الامر . وقوله تعالى « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » وقوله « هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » وقوله تعالى «وذكر به ان تبسل نفس بما كسبت » وقوله « فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه أولئك الذين هداهم الله واولئك هم أولو الالباب » ومنها الآيات التي تبين تأثيره في قلوب المؤمنين وقد ذكرنا منها قوله تعالى « الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم" الآية وقوله عز وجل « لو انزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً » الآية . ومنها الآيات الكثيرة الهادية الى كونه تعالى أنزله ليعقلوه وجعله تبيانا لكل شيء . وكل ذلك لا يكون الا بفهم اللغة العربية فهما صحيحاً يؤثر في النفس . وهذه الضروب من هداية القرآن لا تقتبس الا منه وليست من المسائل الاجتهادية التي تنال بالتقليد ،

وخلاصة القول اننا لا شفاء لنا ولا حياة الا بكتاب ربنا ، وان الاهتداء به لا يكون الا باحياء لغته ، فان الترجمة ليست من كلام الله المنزل وليس لها تأثيره في النفوس ، وإحياء اللغة وسهولة تعلمها إنما يكون بما اشرنا اليه من إصلاح التعليم ، فعليكم أن تساعدوا الذين يتصدون للاصلاح كهذه الندوة المباركة . وقد ضاق الوقت عن بيان اصلاح تدريس سائر العلوم الاسلامية . ثم بيان ما نحتاج اليه من العلوم الدنيوية ، وحان موعد حل الجلسة ، وقد بينا كل ذلك في الفصل الملحق بنظام مدرسة دار الدعوة والارشاد ، فليراجعه من أراد ، وأني اختم الجلسة الآن

* * *